رضا جلاوي

ماء الورد

AUSTIN MACAULEY PUBLISHERS™
LONDON • CAMBRIDGE • NEW YORK • SHARJAH

١

بصوت مليء بالحسرة والندم، مليء بالأسى والحزن والألم، يردد مصطفى الشهادتين، لم يعد شيء يربطه بالحياة سوى سبابته المرتفعة صوب السماء، بقعة الدماء التي تُغَذى من دمه المنهمر مند دقائق تزيد من رهبة الموقف وتغشي الفؤاد بثوب الغضب والانهيار. قبل بضع دقائق من وصول سيارة الإسعاف، وفي محاولة يائسة لإنقاذه يصرخ أصدقاؤه والدموع تنهمر من أعينهم المتورمة، ينتفض مصطفى على الأرض ويفارق الحياة. خيَّمت لحظات الصمت على المكان، لم يكن أحد ليعتقد، أو يصدق أن الجثة الملقاة على الأرض، أن الجثة الغارقة في الدماء، هي لمصطفى، ذلك الشاب الذي عُرِف بابتسامته وطيبته وسموِّ أخلاقه، الصغير يحترمه ويفرح لرؤيته، والكبير يُقَدره ويسعد بمجالسته، والشاب يأتمنه على أسراره ويأخذ بنصيحته.

كان قبل خروجه من المنزل صباحاً يُقَبِّل يدَ "الحاجَّة" أمه، ويغادر بدعواتها ومباركتها.. "سِرْ، الله يغطيك بالرضى يا ولدي"[١] كيف سنحمل لها خبر وفاته؟ وهي التي لطالما تباهت بتفوق ابنها وطاعته لها وتميزه، لطالما شكرته في حديثها اليومي مع جارتها حليمة وهي على السطح تنظِّف الورد وتنزع بتلاته، لطالما أَثنَت عليه في المناسبات والأعراس.. "مصطفى ولدي تبارك الله عليه، هو ا الأول في القسم، إن شاء الله يكون أستاذ كبير من يتخرج"[٢]، كيف سنحمل لها خبر وفاته وهي التي اشتغلت ليلاً نهاراً لتوفير لقمة العيش وكسوة العيد ودفء المسكن؟

لم يكن مصطفى ممن يبحث عن المتاعب أو ممَّن يُقْحِم نفسه في صراعات ونزاعات ومشاكل. كُنتَ تراه في كافتيريا الجامعة يستمتع بهدوء أو يقرأ كتاباً أو يشاهد نشرة الأخبار، لم يكن له انتماء حزبي أو ميول سياسي أو توجُّه فكري وفلسفي، كانت له فقط قناعات فردية بناها لنفسه، كان يرى في وطنه جنة الفردوس ويعيش الحياة بحكمة أمه "خدم أصغري لكبري"[٣].

فرح وسرور في القطار، كانت رائحة الورد تسعده وتقويه وهو يظن أن التظاهرة المنظمة بجانب البرلمان ستكون نزهة وفرصة للمطالبة بحق من الحقوق، فالمطلب في نظره بسيط

والدولة سخية وكريمة... الهتافات ترتفع أمام البرلمان واللافتات تعلو في السماء، الجو صحو والصفوف منظمة، إنه اليوم المثالي لفسحة بجانب الشاطئ، وما العيب في ذلك؟ فما هي إلا لحظات قليلة وتنتهي التظاهرة، ثم إن البحر ليس ببعيد من هنا.

وهو لا زال يراجع الفكرة في ذهنه، ومن غير المتوقع.. فِرَقٌ أمنية تحيط بالمكان من كل جانب، تنزل اللافتات وتستعمل العصي لإخلاء مكان التظاهر! بدأ الجمع في الصراخ والتدافع، الكل يحاول الفرار والنجاة بنفسه، فالعصي لا ترحم الكبير ولا الصغير، لا تفرق بين الرجل ولا المرأة.

بدأت الصورة التي رسمها مصطفى تنهار شيئاً فشيئاً وتزداد انهياراً كلما رأى العصي تنزل على أحدهم ملقى على الأرض، أو آخر يتوسل من غير أن يجد أذناً تصغي وتنصت له. اشتد غضبه وانهارت أحلامه، فقد أعصابه ورمى بحقيبته على الأرض وهو يصرخ: "هذا هو المغرب! هذا هو المغرب!

من الخلف رَجُلُ أمنٍ يدفعه، لم يكن بحاجة إلى القوة لفعل ذلك، فأقدام مصطفى لم تعد تقوى على حمله بعد الصدمة وخيبة الأمل، تعثَّر، سقط وصَدَم رأسه بحافة الرصيف فمات، بهذه البساطة!

خدعة الحياة، نجاح مزيف يحول بيننا وبين رؤية حقيقة الأمر، يفقدنا مصداقية التقييم الموضوعي للوضع، يجعل الواقع بناء من تأسيسنا، يشيده وفقاً لأهداف قد لا تشكل ولا تمثل ما نطمح له، لكنها كفيلة بتحقيق استقرار نفسي ولحظي، بناء كلما علَّيّناه أخفى عنا الحقيقة وجعل فكرة تجاوزه صعبة وأحياناً مستحيلة، أو كحائط حديقة جلسنا خلفه ننظر إلى الورد، نستمتع بجماله، نسقيه، نعتني به، ننتظر تفتحه منبهرين فلا نرى العاصفة الآتية من وراء الحائط.